السنوســـيون

للأستاذ حسين جعفر

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

غزو مصر :

خضع سيدى أحمد الشريف للحركة الإسلامية التى أحياها عبد الحميد الثانى سلطان تركيا واستمر فيها خليفته . و ذلك أدت السنوسية مساعدات مادية قوية الأتراك حينما غزا الطليان طرابلس الغرب فى سنة ١٩١١ ، ولما اضطر الأتراك إلى الاعتراف بالهزيمة استمر سيدي أحمد فى حربه ضد الطليان يساعده بعض الجنود التركية الذين ظلوا فى البلاد ـ خلافاً لما قضت به معاهدة لوزان ـ وفى ابتداء الحرب العظمى الماضية لم يكن للايطاليين غير جزء ضيق من الشاطئ ، وكان السنوسيون حكاماً على داخل البلاد ، وقد عرضت شروط للاتفاق بين الإيطاليين وسيدى أحمد فى النصف الأخير من سنة ١٩١٤ وكاد يتم الاتفاق لولا أن السيد أحمد رفض أن يقبل مركز (باى) تحت الحماية . وما جاء ربيع سنة ١٩١٥ إلا وكان السنوسيون يهاجمون الموانى الموجودة تحت يد الطليان

وحوالى هذا الوقت تمكن عدد من الضباط الأتراك والألمان الذين يتكلمون العربية من الهرب إلى داخل البلاد ، وبواسطة العروض المختلفة والتملق أمكنهم أن يؤثروا على سيدى أحمد ـ على كره منه ـ فيعلن حرب الجهاد وينزو حدود مصر الغربية . وكان سيدي أحمد متردداً ، ولم يكن تردده هذا خافياً على الإنجليز فى مصر . ولذلك أرسلو فى نوفمبر سنة ١٩١٥ ابن عمه السيد محمد بن إدريس من الاسكندرية ليتفق معه على أن يتخلص من مستشاريه الأتراك فى مقابل مبلغ من المال ، ولكن كان الوقت قد فات لأن سيدى أحمد كان مثقلاً بالأموال والأسلحة التركية والألمانية .

وفى نهاية سنة ١٩١٥ غزا سيدى أحمد حدود مصر الغربية بجيش عدده خمسة آلاف مقاتل على أكثر تقدير مع عدد من الجند الأتراك يبلغون الألف عدا . وكان الخطر الحقيقى فى أن أى نجاح يناله السنوسيون قد يدفع البدو المقيمين على حدود مصر الغربية وفى داخل البلاد نفسها إلى الثورة

وبسبب الاستعدادات الاحتياطية التى قام بها الجنرال السير جون مكسويل ـ قائد الجيوش البريطانية فى مصر إذ ذاك ـ فشل السنوسيون فى إحراز أى انتصار . ولم يأت فبراير سنة ١٩١٧ حتى هزم سيدى أحمد هزيمة تامة فتقهقر إلى واحة جغبوب . ويظهر أن عدم نجاح هذا الغزو أثبت بصورة جلية أن طريقة السنوسية لم تكن ذات قوة سياسية أو روحية كما تصور الناس من قبل

وقد بذل الألمان والأتراك جهدهم فى استخدام قوة السنوسى الروحية لإحداث اضطرابات فى جهات غير مصر . ففى السودان أمكنهم أن يؤثروا على السلطان على دينار سلطان دارفور ليثور ولكنه هزم هزيمة قاطعة بقوة مصرية تحت قيادة الماجور ب . ف كيلى فى مايو سنة ١٩١٦

ولم يكن للسنوسى فى باقى أنحاء السودان المصرى الإنجليزى إلا أتباع قلائل ، فإذا ابتعدنا غرباً متجهين نحو بحيرة تشاد نجد هناك أيضاً بعض الاضطرابات ولكن الفرنسيين فى تقدمهم نحو الشمال من بلدة كانين واحتلالهم الحدود الصحراوية واستيلائهم على عين جالاكا ـ فى إقليم بوركو وهى قاعدة السنوسى الجنوبية ـ فى سنة ١٩١٣ ، كل هذا مع بعض المراكز الفرنسية الأخرى كونت حاجزاً دفاعياً ضد غارات السنوسى . أما فى المناطق الداخلية من طرابلس فقد كان سلطان السنوسى قوياً اضطر الطليان معه إلى الانسحاب نحو الشاطئ ، وكان سيدى محمد العبيد وهو شقيق السنوسى يحكم مدينة فزان حتى صيف سنة ١٩١٧

العلاقات مع الطليان

لم يوافق سيدى محمد الإدريس وبعض رؤساء السنوسيين على غزو سيدى أحمد لمصر ، وكان سيدى محمد من طول إقامته بمصر قد اكتسب معلومات عن الأحوال التى كانت تموز سيدى أحمد ، والإدريس رجل مسالم بطبيعته . وقد عقدت الحكومتان الإيطالية والإنجليزية معه اتفاقاً فى سنة ١٩١٧ ، وأقر شيوخ الطريقة سيدى محمد الإدريس على أن يكون السنوسى الأكبر . وفى أغسطس سنة ١٩١٨ وجد سيدى أحمد المقهور والمخلوع أن من الأفضل له أن يغادر طرابلس ، فغادرها على ظهر غواصة ألمانية من مصراطة إلى تركيا مع استمرار ادعائه أنه رأس الطريقة

وفى سنة ١٩١٩ أرسل الإدريس أخاه رضا فى بعثة إلى روما وبواسطة اتفاق عقد فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ اعترف الإدريس بسيادة

الطليان وأعطى لقب أمير وجعل وراثياً فى ذريته مع استمرار سلطته على واحات الكفرة وجنبوب وجالو وأدجيلة وجديبة . واستمرت العلاقات السلمية مدة من الوقت . ولكن الإيطاليين تحت حكم الفاشيست وجدوا موقفهم هذا متعباً ، وكان لديهم أدلة تثبت أن الإدريس كان يشجع الثوار فى طرابلس الذين عرضوا عليه أن يكون زعيمهم وأميرهم . فى أوائل سنة ١٩٢٣ أعلنت حكومة الفاشيست أن الاتفاق السابق مع السنوسى يخل بكرامة الحكومة ولذلك فهى تنقضه . ولذلك انسحب الإدريس فى يناير من تلك السنة إلى مصر وظل هناك، والظاهر أنه لم يفقد أى سلطان روحى له على الناس . وأعلن أتباعه أن السلطان الروحى أهم بكثير من السلطان الزمنى . أما فى شمال طرابلس فقد ظلت المقاومة السنوسية للطليان تحت زعامة الشيخ رضا وكانت بطبيعتها حرب عصابات

. وقد حسن الطليان مركزهم فى مقاومة النشاط السنوسى بواسطة اتفاقهم مع مصر فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٥ وقد منحهم الاتفاق واحة جنبوب على أن تكون الحدود جنوب هذا المكان على خط عرض ٢٥ درجة . وبذلك أدخلت واحة الكفرة ضمن الحدود الطرابلسية . واحتلت جنبوب بواسطة الإيطاليين فى فبراير سنة ١٩٢٦ بلا معارضة — وهى بالنسبة للسنوسيين مدينة مقدسة إذ أنها تضم جثمان مؤسس الطريقة السنوسية وكذلك تحتوى على زاوية لتعليم الإخوان

وفى سنة ١٩٢٧ قام الإيطاليون فى شمال طرابلس بحملة منظمة كانت نتيجتها تسليم سيدى رضا فى ٣ يناير سنة ١٩٢٨ فنفى إلى صقلية . وفى ربيع نفس السنة احتلت واحة جالو وبعض واحات أخرى . واستمرت الأعمال الحربية ضد رجال القبائل بشدة حتى ما جاءت سنة ١٩٢٩ إلا وكانت واحة الكفرة هى الباقية للسنوسيين

تعاليم الطريقة :

من المحتمل أن عدد الإخوان السنوسيين ليس كبيراً . ولكن لهم أتباعاً ومريدين فى كثير من البلاد ، وفى حين نجد كثيراً من طرق الصوفيين بلا أساس وبغير ضابط مع تداخل فى السياسة تداخلاً غير نجد — نجد السنوسيين شغلوا مركزاً واضحاً ومؤثراً فى السياسة ، وكل رائدهم فى ذلك إحياء الإيمان وتعاليم الإسلام الأول . ويمكن اعتبار الطريقة مقتبسة من الحركة الوهابية . ويفهم من المصادر التى يمكن الاعتماد عليها أن الطريقة ليست عديمة الأساس ، وأنها كذلك ليست محافظة بل مجددة . وهى قليلة الأسرار بالنسبة إلى غيرها من طرق الإخوان المسلمين، واستعمال التبغ والقهوة محرم ولكن الشاى مسموح به، وكذلك لبس الملابس الرفيعة . وفى حين أنهم يعترفون بأنهم على المذهب المالكى فإن علماء القاهرة كثيراً ما كتبوا عن انحراف السنوسيين عن الإيمان الصحيح ، ومعظم الاتهامات تنحصر فى أنهم فسروا القرآن الكريم والسنة بدون الاعتماد على مصادر معترف بها ، ولذلك يعتبر العلماء المصريون أن السنوسيين ينشئون بذلك مذهباً جديداً لا طريقة جديدة فى العبادة ، وهم فى ذلك يشبهون الوهابيين خصوصاً فى دقة اتباعهم لنصوص الدين

وبصرف النظر عن التعاليم الدينية نجد أن عملهم الرئيسى — وذلك قبل احتكاكهم بنشاط القوات الأوربية الاستعمارية — الغرض منه الاستعمار وتشجيع التجارة ، وقد حفروا الآبار وزرعوا الواحات وأنشأوا أماكن للاستراحة على طول طريق القوافل ورحبوا بالتجار من طرابلس وبرنو ووادى ودارفور . كل هذا دونه الكتاب الإسلاميون ووكالات الفرنسيين والإنجليز فى تقاريرهم

والسنوسيون كانوا على اتصال دائم بالإدارة المصرية فى واحة سيوه ، ولسنين عديدة خلت كان ممثل السنوسى على وفاق تام مع السلطات المصرية ، وإخلاص السنوسيين لرسالتهم لا شك فيه . وأتباع الطريقة خارج المناطق المجاورة لمركزهم من أوساط عالية على نقيض الطرق الإسلامية الأخرى ، ووكلاء الطريقة فى البلاد أشخاص معروفون أغنياء متعلمون تعليما جيداً وخصوصاً فى فقه الإسلام وهم عادة على وفاق تام مع حكام البلاد التى يعيشون فيها ، وهؤلاء الوكلاء يقومون عادة برحلات سنوية إلى الزوايا المختلفة الموضوعة تحت إشرافهم شارحين لأتباعهم تعاليم السنوسية

حسين جعفر
المهندس الزراعى

المصادر

1. — Wingate "Mahdūsm and the Egyptian Sudan"
2. — Cromer "Modern Egypt"
3. — Count Gleichen "The Anglo Egyptian Sudan"
4. — Berman "The Mahdi of Allah"
5. — Wilfred Scawen Blunt Dairies
6. — Elgood "Egypt and the Army"
7. — Elgood "The Transit of Egypt"
8. — Julien "L-Afrique Française"
9. — Julien "Le Dar Ouadai"
10. — دائرة المعارف البريطانية جزء ٢٠